



برونزيات لرستان...



جلال زنگابادي

Zengabady@maktoob.com

لايبالغ القائلون بأن كوردستان (مهد البشرية) ولايجافون الحقيقة عند نعتها بموطن الحضارات المبكرة؛ منذ ظهور إنسان (النياندرتال)؛ فما فتئت الشواهد الأثرية والتاريخية تؤكد بأن شمس الحضارات قد أشرقت من كوردستان ومنذ أقدم العصور. ولا غرو أذ أن (زاغروس) تعني (مكان ولادة الشمس) واللفظة أصلاً هي (زاغرهوژ)، ثم ألم يحتضن ثرى كوردستان أول قرية ظهرت على وجه المعمورة قبل مايقارب ١٢ ألف سنة وهي (زواي چمي) على ضفة الزاب الكبير قرب كهف شانيدر؟! وعليه أصبح طبيعياً أن تطالعنا كتب الآثار والتاريخ بمصطلحات شائعة عالمياً مثل (برادوستين) و (زرزين) المأخوذ من إسمي موقعين أثريين في كوردستان.

وثمة الآن من يقول بأن (جنة عدن) تقع في كوردستان وعلى أطراف جبال زاغروژ- العمود الفقري لكوردستان- بالذات. بل وثمة من أخذ بنعتها بـ(أرض الله والأنبياء)؛ يقيناً أن مسلمة هجرة أسلاف الكورد إلى كوردستان قد أصبحت معرضة للتفنيد بعدما كانت موضع نقاش؛ فقد وجد أولئك الأسلاف منذ غابر الأزمنة السحيقة (قرابة ١٢٠ ألف سنة) حين كانت غالبية مساحة أوروبا وشمال آسيا رازحة تحت الجليد. ولقد ذاب في مجتمعات أولئك الأسلاف وفي لغتهم كل القادمين من كل حدب وصوب، بشكل من الأشكال. ولعل معظمهم قد كان حفدة للنازحين القدماء من كوردستان إلى ماجاورها وأبعد، في فترات سابقة.

وهنا تجدر الإشارة إلى رأي الباحث الروسي (د. كريغوريف) في كتابه (الشعوب الهندو أوروبية القديمة، محاولة لإعادة صياغة تاريخهم) الصادر في ١٩٩٩ حيث يقول أن هجرة الشعوب الهندو أوروبية قد بدأت منذ قرابة عشرة آلاف سنة، أي بعد طوفان نوح، من كوردستان إلى قفقاسيا وأوروبا، بل، أنه يعتبر كوردستان المهدي الأول لأنطلاق نزوحات القبائل الأوروبية ابتداءً من العصر الباليوثي الأقدم (العصر الحجري القديم ١٠٠-٨٠ ألف سنة).

وهكذا يبدو أن هنالك الآن تركيزاً لاسابقة له على المركزية الحضارية لكوردستان، بالعكس مما كان يروج له الغرب منذ قرون، أي الترويج للمركزية الأوروبية بشرياً وثقافياً وحضارياً. وهكذا حان- كما يبدو لنا- الترويج لمصطلحي (الشعوب الكورد وأوروبية) و(اللغات الكوردوأوروبية)!!

* * *

تمثل (لرستان) بالنسبة لكوردستان الكبرى إقليمها الجنوبي الشرقي، الذي يطل على الخليج جنوباً، ويمتد شمالاً حتى همدان وكرماشان، ويحده غرباً نهر دجلة وإقليم خوزستان. أما شرقاً فتحده مناطق من أصفهان وهمدان. ولا بد هنا من الإشارة إلى أن لرستان تضم مناطق لكستان وبختياري وكهكويه وبوير احمد وممسيني وإيلام إضافة إلى محافظة لرستان.

منذ أربعين ألف سنة ولرستان مأهولة بالبشر ولقد إستوطنها منذ القدم: اللولو، الكوتيون، الهوريون، الكشييون، العيلاميون والميديون، الذين يعتبرون جميعاً من الأسلاف القدامى للشعب الكوردي، وذلك قبل ظهور الفرس في إقليم فارس المتاخم لجنوب لرستان بأكثر من ألف سنة.



خارطة لرستان الحالية وهي أصغر مساحة مما كانت عليه قديماً



ومن المؤكد لدى ذوي الأختصاص والأطلاع أن اللهجة اللرية تمثل إحدى اللهجات الأربع الرئيسية في اللغة الكوردية. ناهيك عن أقدميتها، ويتحدث بها أكثر من خمسة ملايين في إيران والعراق وبلوجستان.. وان أشهر من ألف بها هو بابا طاهر الهمداني (١٠٠٠-١٠٧٥) الذي يعده معظم المختصين أول شاعر في تاريخ الأدب الكوردي.

معلوم أن إيران من البلدان الغنية، بالمعادن ومنها: النحاس، القصدير، الرصاص، والحديد، على وجه الخصوص، لذا كان من الطبيعي أن تزدهر فيها صناعة معدنية كالبرونزيات اللرستانية، بميزاتها وأساليبها الفنية المتعددة، وعبر مراحلها التاريخية المتتالية.

فقد كشفت الحفريات والتنقيبات الأركيولوجية في لرستان عن آثار مهمة جداً. تعود إلى أسلافنا القدامى، الذين يعتبرون من البناء الاوائل للحضارة في الشرق. وإن البرونزيات النفيسة تؤكد ذلك، والتي ما إن وجد بعضها الفلاحون اللر، في المقابر المتناثرة في الشعاب الجبلية غربي كرماشان وجنوبها، لاسيما في هرسين وخرم آباد، في سنة ١٩٢٨؛ حتى سارع الى نهبها الحفارون المتخفون ومتصيديو الكنوز والتجار والمهربون.. فلم يستدرك أمرها الاثاريون والمختصون إلا بعد بضع سنين، وبعدها عبث بها العابثون..

ومع ذلك فقد إحتضنت متاحف: اللوفر، ارميتاج وطهران وغيرها المزيد منها، ناهيك عن مجموعة (ديفيد ويل).

لقد وجدت الآلاف من القطع البرونزية والحديدية، في قبور شبيهة بالخنادق، أو مرصوفة بالأحجار ومغطاة بالواح حجرية كبيرة. وغالبا ماكان الركام الترابي للقبر مغطى بحجر دائري الشكل كما لو أنه (شاهدة).

تشمل كنوز البرونزيات: السيوف، الخناجر، الدروع، السهام، الحراب، الرماح، الدبابيس، الأصنام، المجوهرات، الأوعية، المسلات، تماثيل أبطال يصارعون الحيوانات، حيوانات أسطورية ومشاهد لصيد: الوعول، الأسود، الثيران، الطباء، الثعالب، الخنازير، والأرانب على ألواح البرونز المحفورة وقد خيبت على أحزمة من الجلد. وكذلك خواتم وأختام بشكل طيور بسيطة وبعضها شبيهة بالأختام العيلامية والكشية. وكانت المعاول والفؤوس البرونزية والحديدية مزخرفة بحيوانات أو أجزاء منها. وأبرزها فؤوس ذات شفرات ومقابض تبرز من فكوك مفتوحة لحيوانات برية.

ولقد تضاربت -بشأن تاريخ هذه اللقى وملكيته- آراء المعنيين والمختصين ومنهم: گدار، شميدت، كيرشمن، ديشيه، بارو، فرنكفورت، مورتكارت، بوراده و د. فرج بصره جي. علماً بأن معظمهم متفق على (أوائل الألف الثاني ق.م) أي العهد الميدي حتى العهد الهخامنشي (الأخميني)

وهناك العديد من البحوث والدراسات عن هذه التحف الفنية، فالعالم أندريه گدار، الذي زار المنطقة في ١٩٣١ عدها من أعمال الكشيين الذين تواجدوا في جبال لرستان منذ قرابة أربعة آلاف سنة وحتى العهد الأخميني والذين حكموا بابل قرابة خمسة قرون. والذين سبق وأن أجبرهم الملك العيلامي (شتروك) على النزوح من لرستان إلى بابل. وقال گدار أن صناعة هذه التحف

كشية وهي متأثرة بالفن البابلي أكثر من تأثرها بالفن الآشوري. وثمة الأثاري المختص اريك شميدت، الذي أفلح عام ١٩٣٨ في إجراء تنقيبات في أحد المعابد القديمة، فهو يؤرخها بأوائل الألف الأول ق.م. أما العالم شيفر فيرجع تاريخها الى (١٤٠٠-١٣٦٥ ق.م) بينما ينسبها العالم رومان كيرشمن للاسكيثيين الكيميريين المحاربين الرحل في بداية القرن (٧-٨ ق.م) متحججاً ببحوث العالمين الروسيين دياكونوف وبتروسكي كيشفلي ويحسبها متأثرة بالفنون الحثية والهورية والآشورية. غير أن العالم جين ديشيه يعتبر لرستان مركزاً عريقاً ومهماً للصناعات البرونزية والسجاد وغير ذلك.. مؤكداً على أن لرستان كانت تزود آشور وشمال سوريا بمنتجاتها وهو ينسب هذه البرونزيات إلى الهوريين المتواجدين في لرستان في منتصف الألف الثاني ق.م.

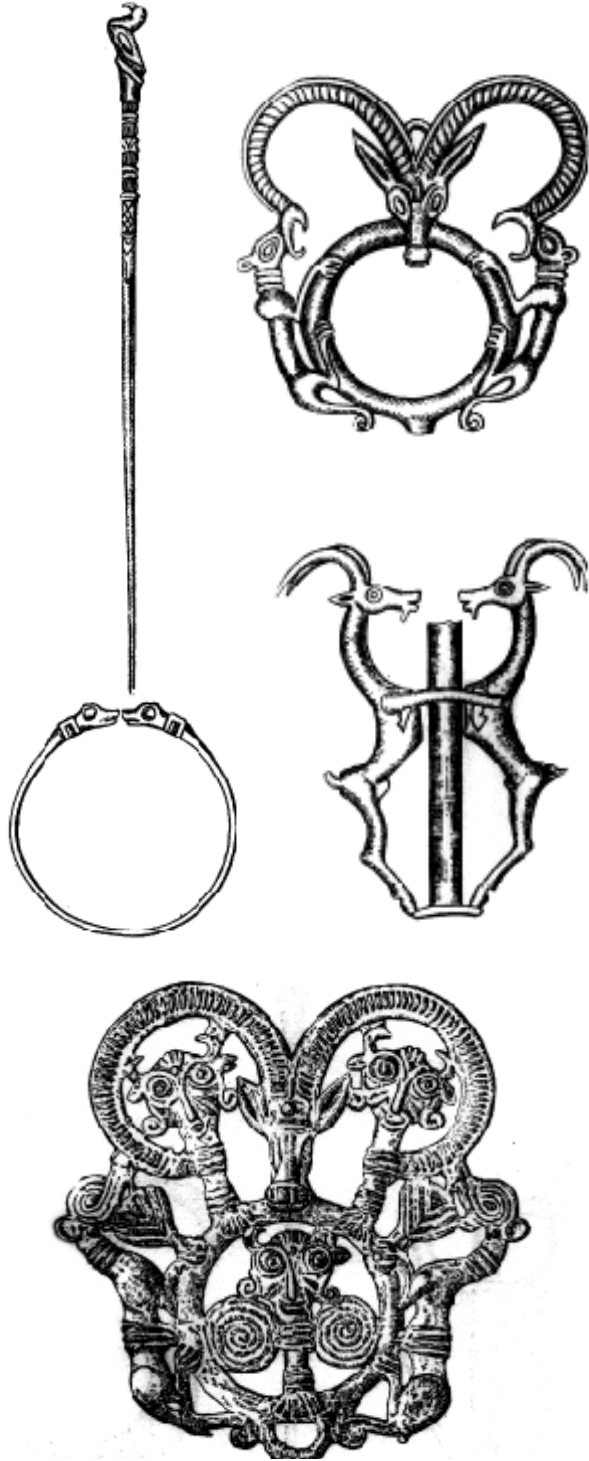
وقد سعى البحاة الفرنسي الشهير في فنون الجنس البشري اندريه بارو الى تنسيب كل هذه التحف إلى آشور وبابل؛ معللاً الأمر على «أنها وجدت سبيلها الى لرستان نتيجة أهوال حرب ما، أو بصفة هدايا طوعية تقريباً» لكنه سرعان ما يناقض نفسه؛ فيعترف بـ «لأصالة اللامعة للصناع المحليين، الذين طوروا أسلوباً لا يشبه حقاً الأسلوب الآشوري المعاصر ولا الفن الحثي أيضاً بل ويضيف «ليس هناك ما يشبهها، لا في الفن الكشي ولا الفن العيلامي» وبهذا الخصوص أيضاً أكد كدار بأنه لم تكشف الحفريات الأركيولوجية، في بلاد الرافدين، ما يشبه هذه التحف الرائعة، التي وجدت بكثرة في وديان وشعاب جبال زاغروث. وكذلك نسبها فرانكفورت الى لرستان، وعد صناعتها خاصة بسكانها الذين طوروها متأثرين بالشعوب المجاورة، لاسيما بالآشوريين، ثم إنتشرت على أيديهم في العهد الأخميني.

أما (مورتكارت) فيشير إلى تشابهها مع الفن العراقي القديم ويرجع بعضها الى الحقبة المتأخرة من العهد الأخميني وهو ينسبها إلى الأسكيثيين النازحين من شمال ايران الى لرستان ويؤكد على أن هذه الصناعة ليست موحدة السمات والحقبة التاريخية وإنما تختلف باختلاف الأزمنة والتأثيرات الخارجية عليها ويرى بأن تاريخ أكثرها يرقى إلى الألف الأول ق.م برغم وجود مناظر على بعضها غالباً ماتكون مألوفة على بعض اللقى من العهدين السومري والبابلي القديم..

وقد قسمت (بوارده) تاريخ صناعة البرونزيات اللرستانية إلى ثلاثة أدوار: أولها: التأثر بالحضارات الكشية، البابلية والميتانية خلال (القرنين ١٢ و ١١ ق.م). وثانيها: الصناعة المتطورة عن الدور الأول مع تأثرها بالنماذج العيلامية خلال (القرنين ١٠ و ٩ ق.م). أما الدور الثالث، فقد تطورت فيه هذه الصناعة أسلوبياً خلال (القرنين ٨ و ٧ ق.م) حيث اندمجت بالصناعة الميدية ثم الأخمينية متأثرة بهما حتى إختفائها نهائياً.

تبدو هذه التحف البرونزية معقدة فنياً نوعماً. إلا أنها تتسم بحيوية مدهشة وتجلو أصالة الحرفيين الفنية، ولاتضاهيها سوى كنوز الميديين الفنية. المكتشفة في (زيوه) بجنوب شرقي بحيرة أورمية..

وتضم التحف كذلك تماثيل وحلياً من الذهب والفضة والعاج. وان مقابض السيوف والخناجر البرونزية مصنوعة من العظام أو





الخشب وهي مزخرفة بشكل فني بديع. والملاحظ أن تماثيل الحيوانات-خصوصاً- تبدو أسطورية برغم تشبيهاتها الطبيعية.

فهي في حقيقة الأمر مركبة (واقعية وخيالية في آن واحد) حيث كان الفنانون يستمدون موضوعاتها من الواقع ويضفون عليها كل ما أمكنهم من قوة المخيلة؛ فالحيوانات المرسومة على قطع الوجنات للشكائم- مثلاً- تتألف غالبيتها من تماثيل أبي الهول المجنح والمفلون (الشبيه بالماعرز الجبلي) وثمة بين اللقى تماثيل الأبطال الذين يصارعون الحيوانات الوحشية، وهذه ثيمة شائعة في الخيال الأسطوري الشرقي.

والجدير بالذكر هنا أن شواهد عديدة من هذه البرونزيات البديعة قد اكتشفت في (أوغاريت- رأس شمرة، الواقعة قرب ساحل البحر الأبيض المتوسط، مقابل جزيرة قبرص) وفي الصين أيضاً، حيث وصلت إلى تلك الأصقاع القصية بمثابة هدايا أو عن طريق التجارة أو التأثر الفني ويؤكد أندريه بارو: «تعد برونزيات لرستان بين أعظم التناجات المعبرة للفن الشرقي، ولقد وجدت معظمها من قبل سراق الآثار، وأدت إلى مناقشات لانتتهى، تتعلق على نطاق واسع، بالعصر الذي ينبغي أن تعزى إليه. والمظهر الفريد لفن لرستان لا يرجع إلى نسقه وقوة أصالته فحسب، بل إلى اللمحات، التي يعطيها عن عالم غريب مجهول، وعن حضارة لا تشبه أخرى غيرها...»

وأخيراً لا بد من وقفة مع رأي الباحث العراقي (د. فرج بصمه جي) الذي يؤكد بأن هذه المجاميع الفنية تتميز بوحدة الصناعة والفن برغم إختلافاتها في الأشكال والتأثيرات الخارجية على نقوش بعضها؛ كمشاهد من الأساطير والملاحم والطقوس القديمة، السومرية، البابلية، الحثية، العيلامية والأخمينية خصوصاً وأن هذه الصناعة قد أقتبستها لرستان عن طريق الكشيين.. وعليه يمكن القول ان أقدم تاريخ لصناعة البرونزيات اللرستانية يرقى إلى (منتصف الألف الثاني ق.م) أي إلى العهد الكشي- بعد ترك الكشيين لبابل- ولذا فإن التأثيرات البابلية- خاصة- عليها جلية؛ كما ظهرت عليها التأثيرات العيلامية لاحقاً. ثم التأثيرات الميتانية والهورية. ثم أن أكثر القطع تعاصر العهد الآشوري، إذ دخلت صناعتها مرحلة جديدة؛ بدخول الأسكثيين إلى المنطقة وأنطبت بصماتهم عليها. إلى جانب تأثر فنهم بفنون الجوار كالآشوريين- حلفائهم ضد الميديين- فضلاً عن التأثيرات اليونانية والحثية. ولاشك في أن للميتانيين نصيبهم في هذه الصناعة وأخيراً فقد إمتزجت هذه الصناعة بالصناعة الميدية وما برحت تأثيراتها حتى العهد الأخميني قبل أن نختفي نهائياً.

وهاهي كنوز لرستان النفيسة نراها معروضة مع الكنوز الفنية والآثرية لليونان والرومان والمصريين القدماء في كبريات المتاحف وعلى صفحات الأنترنت، بل ويستوحى منها حتى فنانون أفلام الكارتون وكتاب الأطفال... في حين يكاد أغلب فنانينا الكورد يجهل حتى وجودها!!

فمتى ترى سنعرف جذورنا ونستثمر تراثنا العظيم في ثقافتنا المعاصرة ونحن على جهل وتجاهل بكنوزنا الأصلية والفريدة؟!!!

المصادر

١- جريدة (خهبات) ع (١٠٨٦) في ١٢/٧/٢٠٠٢.
أولى هجرات القبائل الهندو اوروبية....
متابعة: فلك الدين كاكهي

٢- مجلة (گهرمه ستر) ع (٢١) صيف ١٩٩٦
برونزيات لورستان النفيسة.
جلال زنگابادی.

٣- مجلة (هدزار ميتر) ژ (٢) كانوونی يهگهه ١٩٩٧
کنوز لورستان البرونزية، مدلولاتها التاريخية.
نسرین خو اکرم.

٤- بلاد آشور
اندريه بارو
ترجمة وتعليق: د. عيسى سلمان وسليم طه التكريتي
ط١/١٩٨٠/بغداد.

٥- مفرغ هاي قابل تاريخ گذاري لرستان وكرمنشاه
پتر كالمير
ترجمة: محمد عاصمي
١٦، ١٩٩٧، تهران

٦- الأنترنت/ صور التحف والاستفادة من الشروح المرفقة
بالانكليزية والفارسية.

7- J. Kurdo
Kurdistan
The origins of Kurdish Civlazon
1988